مكتبة الطفل العربي
١٣
الجَوْهَرَةُ الغَالِيَة
مجدي صابر
دار الجيل

مَكتَبة الطّفل العَربي

١٣
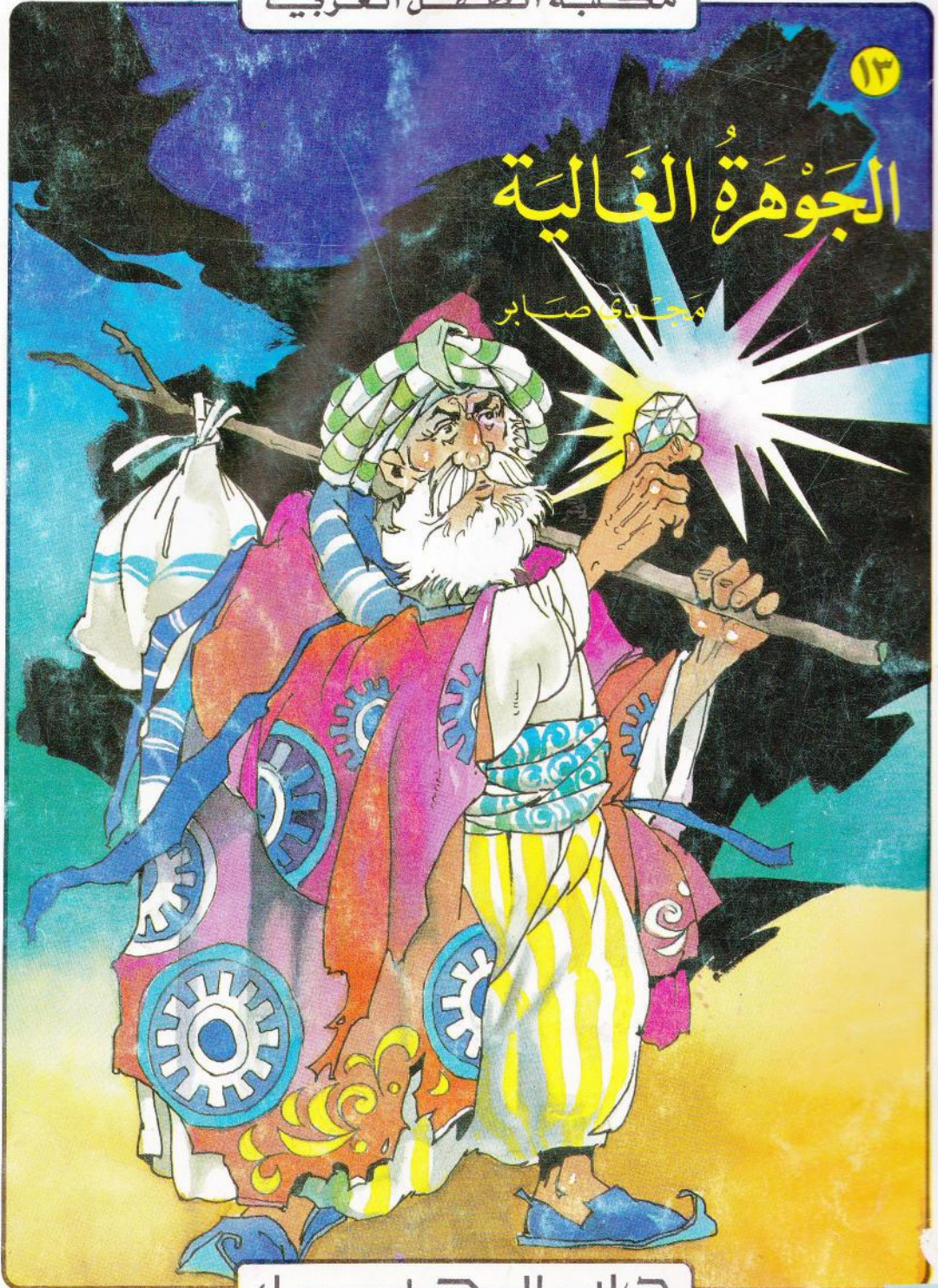
الجَوْهَرَةُ الغَالِيَة

تأليف
مَجدي صابر

دار الجيل
بيروت - القاهرة - تونس

مَكتَبة الطّفـل العَـربي

تـأليف : مَجدي صَـابر

هي مجموعة جديدة وشيقة من قصص الأطفال، كُتبتْ بأسلوبٍ أدبيٍّ ممتاز، يمتزجُ فيها الخيالُ مع الواقع . . والحلمُ مع الحقيقة، لتصنَعَ عالماً أخاذاً مُبهراً، يناسبُ عقلَ وسِنَّ قارئها الصغيرِ، ويَفتح أمامَ عينيه أبواباً لا حصرَ لها من المعرفةِ والقِيَمِ التربويةِ والأخلاقِ النبيلةِ.

ونحن نفخرُ بأن تؤدي هذه المجْمُوعةُ القَصَصِيّةُ المَكْتوبةُ والمُخْتارةُ بِعِنايَةٍ بالِغةٍ، الغَرضَ منها تماماً، وتُحاوِل أن تَسدَ بعض النّقصِ في مكتبةِ الطّفلِ العربيّ، دونَ أن تَسْتهينَ بِعقلهِ، أو تَتخطى قِيَمه وعاداته.

ونَأملُ أن نَكونَ قد حَقّقْنا الهَدَفَ الّذِي نَرْجُوه من إصْدارِنا لهذه المَكتبةِ، وأن تَحْتلَ قِصَصُها مكانها اللائق في مكتبةِ كلّ طفلٍ عربيّ.

الجَوْهَرةُ الغَالِيَة

فَي قَديمِ الزَّمانِ، عَاشَ تاجِرُ صالحٌ، يَكْسَبُ من تِجَارتِه الحلَالَ، فرزَقهُ اللهُ رِبحاً وفيراً، حتَّى صارَ شَهبَنْدَراً للتُّجار.

وكانَ لشَهبندرِ التُّجَّارِ زوجَةُ صالحَةٌ، تتعَبَّدُ كثِيراً، وتدْعُو لزوجِهَا دَائماً. وكَانَ شَهبندَرُ التُّجارِ يقولُ لزوجتِه: «لا تبْخِلي يا زوْجتِي العَزِيزةُ علَى كُلِّ منْ يقرعُ بابَنَا سائِلاً، أو يَقصِدُنَا مُحْتاجاً، فاللَّهُ الَّذِي وهبَنَا الرزقَ الوفِيرَ قَادِرٌ علَى اسْترِدَادِهِ، إنْ لمْ نتصدَّقْ منهُ على الفقَراءِ والمساكِينِ، والمرْضَى والمحْتاجين».

فكانَتْ زوجَتُهُ لا تُغلِقُ بابَهَا أمَامَ فَقِيرٍ، ولاَ تُصمُّ أُذنَيْهَا عَنْ شَكوَى مِسْكينٍ، حَتَّى اشْتهرَ بيْتُ شهبَندرِ التّجارِّ، بأنَّه لا يصْرِفُ إنساناً دُونَ حَاجَتهِ، فهوَ يُطْعِمُ الجائِعَ ويكسُو العَارِيَ ولا

يصُـدُّ عن بَابِـهِ إنسانٌ. . ولـذَلِكَ أحبَّـه النَّاسُ وأجلُّوهُ، ورفعُـوهُ بينَهمْ إلَى منزلةٍ عاليَةٍ، وكانُوا يقُولونَ دَائِمـاً: «لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هـوَ أكرَمُ مِنْ شَهبنْدرِ التُّجَّار».

كَمَـا اشْتهرَ الـرَّجلُ أيْضـاً بأمـانَتِهِ الشَّـديدَةِ، فَهـوَ لاَ ينكِرُ لإنسَانٍ مالاً لهُ أبداً، وَلاَ يغُشُّ فِي تجَارتِهِ أوْ يكذِبُ، مهْما كـانَ ينتَظِرُهُ منْ ربحٍ فِي ذَلِكَ، حَتَّى اشْتَهَرَ بَينَ النَّاسِ بشِدَّةِ الأَمـانةِ والاسْتقَـامـةِ، وقـالَ النَّـاسُ عنْـهُ: «لَيْسَ هُنَـاكَ مَنْ هُــوَ آمَنُ مِنْ شهبَندرِ التُّجَّار».

وكـانَ للشهبنْـدرِ ابنٌ وحيـدٌ، أَسمَـاه «أمين»، وربَّـاه علَى الفضِيلةِ والاِسْتقـامَةِ، والكـرَمِ والأَمانَـةِ، وعلَّمهُ أسـرَارَ تجارَتـهِ وفنُونَ البَيْعِ والشِّراءِ، واصْطحبَـهُ معَه فِي الـرَّحلاَتِ والأَسفَـارِ، فحَذِقَ أَمين أعمالَ والِدِهِ، وتولَّاهَا بنفْسِهِ، وبرَعَ فِيهَا.

ومرِضتْ زوجةُ شهبنْدرِ التُّجارِ، وماتتْ بعدَ قليلٍ، فبكاهَا أمِين ووالِدُه أيَّاماً كثِيرةً، وزادَا مِنْ تصدُّقِهِمَا علَى الفُقراءِ، إكراماً لذكْراهَا.

وذاتَ يومٍ سقطَ شهبَندرُ التُّجـارِ مريضـاً، واشتَدَّتْ عليْـه العِلَّةُ ولمْ يُفلحْ فِي تَخلِيصِـه منْهـا طبٌّ أو دَواءٌ، مِنْ كـلِّ البِـلادِ والأَنحاءِ، فأوْشكَ علَى الموْتِ، ودَنَا منْ حَافَّةِ القبْرِ، فدَعَا ولدَهُ «أمين»، وقَالَ لهُ وهُو في الرَّمقِ الأَخيرِ: «يا وَلدِي لَقَدْ ربَّيتُكَ علَى الفَضائلِ الحسَنةِ، وتركتُ لكَ مالاً كثِيراً، وقصْراً كبِيراً، ومزَارِعَ وأرَاضِيَ. وكُلُّ هذِهِ الأَملاكِ لاَ تُغْنِي الإِنْسانَ، ما لمْ يَتَحلَّ معَهَا بالفَضِيلَةِ، فلاَ تنْسَ ما عَلَّمْتُكَ إِيَّاهُ، ومَا أرْشدْتُكَ إِلَيْهِ، فادْعُ اللَّهَ ليلَ نهار شاكِراً علَى ما أصابَكَ مِنْ نعمَةً ومَـالٍ، وتصدّقْ دائِمـاً علَى المسَاكينِ والفقَراءِ، فمالُكَ يزيدُ دائِماً بالصَّـدقَةِ ولا يَنقُصُ أبَداً، وكنْ أميناً دائماً، يَزِدْ مالُكَ وتعْـظُمْ ثروتُـكَ، فالأَمـانةُ هي سِرُّ النجَاحِ. . أَمَّا المالُ الحرامُ فهوَ يذْهبُ بغيرِه منَ المـالِ ولوْ كَانَ مِنَ الرّزقِ الحَلاَل.

وأغمضَ شهبنْدرُ التُّجارِ عيْنيهِ، وفاضَتْ روحُهُ، فَشقَّ «أمين» ثيابَهُ مِنَ الحزْنِ، ولطَمَ خدَّيهِ، وسَـاحَ منْ عينيهِ دَمـعٌ كثِيرٌ حـزْناً علَى والِدِه.

وأقبلَ النَّاسُ معزِّينَ فِي وفَاةِ شَهْبندرِ التُّجارِ، وَدعوْا «لِأمين» بالسَّلوَى والصَّبرِ وَتحمُّلِ مُصيبَتِهِ وأحزَانِه. وتذَكَّرَ «أمِين» مـا قَالـهُ

والـدُهُ قبلَ وفـاتِهِ، فـأقامَ الـوَلائِمَ الكبِيرَةَ للفُقـراءِ، ووزَّع عليْهِمُ المالَ والكِسَاءَ، وطلَب منهمْ أنْ يقُوموا بالدُّعاءِ، وطلَبِ الرَّحمَـةِ لوالِدِهِ.

ومضَتِ الأيامُ، وخَفَّ عنْ «أمين» حزْنُهُ، واهتَمَّ بعمَلِهِ، فزَادَ مالُه، وتوسَّعتْ تجارَتُهُ حتَّى اختَارهُ بقيَّةُ التُّجارِ، شهبنْـدراً لهُمْ، خلَفاً لوالِدِهِ، فأصَـابَهُ شيءٌ مِنَ الغُـرورِ ونَسِيَ كُلَّ مَـا أوصَاهُ بـهِ والِدُهُ، واخْفَى فِي نِفْسهِ أمْراً.

وسافَرَ «أمين» إلَى بِـلادٍ بَعيـدَةٍ، فـأحْضـرَ منْهَـا أقمِشَـةً منَ الحـريرِ الثَّمينِ، وحُليًّـا منَ العاجِ ، وأخْشـابـاً وعقـاقِيـرَ تُـداوِي أفضلَ منْ أيِّ علاجٍ . وقامَ «أمين» بتخزِينِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي قَصْرهِ، فتوافَدَ عليْه النَّاسُ والتُّجارُ، يُريـدونَ الشِّراءَ مِنْ كُـلِّ الأَصنافِ، ولكنَّ «أمين» طلبَ فِي بضاعتِهِ سِعْراً عـالِياً، وثَمَنـاً كبِيراً، وقَـالَ للمجْتمعِينَ حَـوْلَـهُ: «لقدْ تَعِبْتُ كثِيـراً في الحُصُـولِ علَى هَـذِهِ الأَشيَاءِ، وَلاقيْتُ فِي جَمْعِهَا أكبرَ عَناءٍ، ولذلِكَ لنْ أقبـلَ فِيهَا إلَّا ضعف السِّعرَ الَّذِي يُساوِيَها».

فـذهَبَ النَّاسُ سَـاخِطِينَ، وقَـالوا غَـاضِبِينَ: «هَذَا لَا يلِيقُ بمنْ كـانَ شهبنـدَرَ التُّجـارِ، فهـوَ يجِبُ ألَّا يغَـالِيَ فِي أثْمـانِ

بضَائِعِهِ، وإلاَّ قَلَّدَهُ بقيـةُ التُّجارِ، فتـرْتفعُ الأسعـارُ ويعيشُ النَّاسُ في شقَاءٍ من الغَلاَء».

وقـالَ آخرونَ: «رَحِمَ اللَّه شهبندَرَ التُّجارِ، والِدَ «أمين»، لوْ كانَ حيًّا ما سمحَ لابْنهِ بمثلِ هذِهِ الأَفْعَال».

ولكنَّ «أمين» لمْ يهتمَّ بتلكَ الأَقوالِ، وباعَ بضـاعَتَـهُ بثمَنٍ كبيرٍ دفَعَهُ لـهُ بعْضُ التُّجَّارِ المستغِلِّينَ، وزادُوا فِي أسْعـارِ بَيْعِهِمْ للنَّاسِ، حَتَّى ضَجُّوا مِنَ الشَّكوَى والغَلاَء.

سعِدَ «أمين» بالمَالِ الكثيرِ الَّذِي حَصُلَ عليْهِ، وباتَ قـرِيرَ العَيْنِ. وفِي الصَّباح إسْتَيْقَظَ مذْهُـوشاً علَى طَرَقـاتٍ عَلَى بابِـهِ، فأمرَ خدَمَهُ بفتْحِهِ، فدَخَلَ القصرَ عدَدٌ مِنَ الفقَراءِ والمحتَـاجِينَ، يَبِينُ الجُوعُ علَى وُجوهِهِمْ، والمرضُ فِي أبْدانِهِمْ، وَهُمْ يَطْلِبُونَ طعَاماً وشـرَاباً، أوْ ثـوباً ودوَاءً، ولكنْ «أمين» صاحَ فيهِمْ غاضِباً: «إِذْهَبُوا مِنْ هُنا أيُّها المتسوِّلونَ، إننِي لمْ أجمَعْ مالِي لأفرِّقَـهُ علَى أَمثـالِكُمْ، هَيَّا غـادِرُوا دَارِي ولا تعُودُوا إلَى هُنَـا، وإلاَّ أرسلتُكمْ إلَى القَـاضِي فيَحبِسَكمْ ويَسْجنَكمْ، بسبَبِ إزعـاجِكمْ لشَهبنْـدرِ التُّجار».

فانصرَفَ الفقَراءُ والمساكِينُ مذْهوشِينَ، وهمْ يضرِبونَ أكفَّهمْ متحيِّرينَ، وقَالُوا جَمِيعاً في صوْت حزِينٍ: «رحمَ اللَّهُ شهبندَرَ التُّجارِ والدَ «أمين»، فلوْ كانَ لاَ يزالُ حيًّا لَمَا منعَ عنَّا طَعاماً أو مَالاً، وما صرَفَ عنْ بابِهِ جَائعاً أو مريضاً».

أمَّا «أمين» فلمْ يهتمْ بما قَالهُ الفُقراءُ، وانْصرفَ إلَى نَفْسِهِ، وقدْ نسِيَ كُلَّ ما أوْصاهُ بهِ والدُهُ، فارْتدَى أغْلَى الثِّيابِ، وتحلَّى بأثْمنِ الجواهِرِ، وتعطَّرَ بأندَرِ العُطورِ، ممَّا يكْفِي لإطعَامِ ألفِ فقيرٍ، وقَالَ لِنَفْسِه: «الآنَ صِرْتُ شهبندراً للتُّجارِ بالفِعْلِ، فلا يُوجدُ فِي هذِهِ المدِينَةِ منْ هوَ أغْنَى مِنِّي أوْ أكثرُ مالاً».

ونظرَ إلَى نفسِهِ فِي مرآتِهِ بإعجَابٍ وقَالَ: «ولاَ يُوجَدُ أيضاً مَنْ هُو أكثرُ وسَامَةً منِّي فِي كُلِّ هذهِ المدِينَةِ.. ومنْ كانَ فِي مثْل غنَايَ ووَسامَتِي، حُقَّ لهُ أن يتزَوَّجَ أجمَلَ الجمِيلاتِ، وأَبهَى الفاتِنَاتِ، لَيسَ أقَلَّ منْ ستِّ الحسْنِ والجَمَالِ.. تُرَى أيْنَ أَجِدُ مثلَ هذهِ الفَتاةِ لتكونَ عَروساً لشهبنْدر التُّجار؟»

وتَذَكَّرَ «أمين» أنَّ النَّاسَ جمِيعاً، كَانُوا يتحدَّثونَ عَن ابنةِ الحَطَّابِ، ويقُولُونَ أنهَا أجمَلُ الجميلَاتِ والحسْناواتِ، وأَن

العَيْنَ لمْ تقـعْ علَى مَثيلٍ لهـا فِي جمَالِهَـا. . بـالـرَّغمِ مِنْ فقـرِ والدِهَا وكونِهِ لَيسَ أميراً. . وَلا وزيراً.

قال «أمين» لنفْسهِ مخْتـالاً: «فلأذهبْ إلى ابنـةِ الحطَّابِ فِي الحَـالِ، فـإنْ كـانَتْ كمَـا يصِفُهـا النَّـاسُ فسوْفَ أخـطبُهَـا مِنْ والدِهَا».

وأمرَ خدَمَه في الحَالِ، فـأتَوْا بـالسِّلالِ، ومـلأوهَا بـأندَرِ الحـرَائرِ وأجمَـلِ الملابِسِ، وبـالحُليِّ والمجـوْهـراتِ مِنْ كُـلِّ الأَنواعِ، وحمَلُوهَا فوقَ ظُهورِ البِغَالِ،وَتَقَدَّمَهُمْ «أمين» نحوَ منزِلِ الحَطَّاب.

* * *

وكـانَ الحطَّابُ الفقيـرُ يعِيشُ في كـوخٍ صَغيـرٍ يقَـعُ علَى حُدودِ الغَابَةِ، فيُمْضِي نهارَهُ فِي قطعِ الأَخشَابِ، وتُساعدُه ابنَتُـهُ الجمِيلةُ فِي تحمِيلِهَا فوقَ عربتِهِ الصَّغيرةِ الَّتي لا جوادَ ولا حمارَ لَهـا، فيجرُّهَـا الحـطَّابُ إلَى سُـوقِ المـدِينَـةِ، وَيبِيـعُ حـطبَهَـا، ويشتَرِي بِثَمَنِهِ ما يحتَاجُهُ هو وابنَتُهُ الوحِيدَةُ اليتِيمةُ الأم.

وعندَما وصلَ «أمين» إلَى كوخِ الحطَّاب، كانَ بابُهُ مفْتُوحاً، فأطَلَّ بداخِلهِ، ولَمْ يشَاهـدْ أحداً فيهِ. وكلُّ مَـا رَآه فِراشَـانِ من
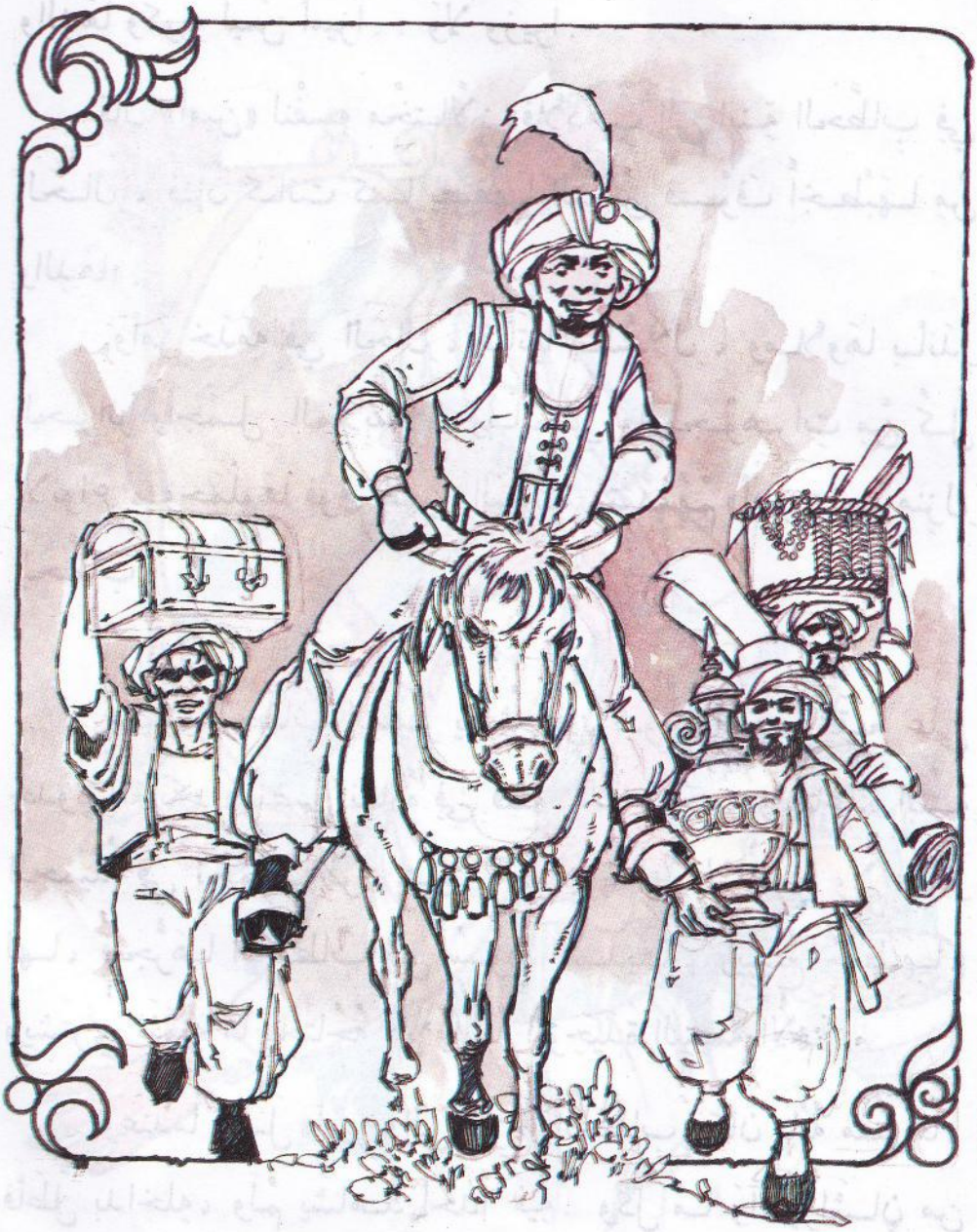
جلْدِ الماعِزِ الخشِنِ، للحطَّابِ وابنَتِهِ، ووعَاءانِ للطَّعامِ، ومِقْعَدانِ للجلُوسِ، ومنْضدَةٌ ولمبَةٌ، ولا شَيءَ آخرَ داخِلَ الكُوخِ الصَّغير.

وأمرَ «أمين» خدَمهُ فساقُوا البغَالَ خلْفَهُ، إِلَى الغَابةِ القَريبَةِ، وعنْدَما دَنَا «أمين» مِنْ حَافَّتِهَا، شَاهدَ ابنَةَ الحَطَّابِ، وهِيَ ترُصُّ الحطَبَ فوْقَ عرَبةِ والدِهَا، غَيرَ منْتبهةٍ إلى قُدوم «أمين»، وقدْ راحَتْ تغنِّي بصوْتٍ رقيقٍ، كأنَّها لا تحْمِلُ للدُّنْيَا همًّا، ولا يسبِّبُ لَهَا فقْرُ والدِهَا حُزْناً.

وعندَما شاهَدَ «أمين» ابنةَ الحطَّابِ وسمِعَ غنَاءهَا، وقفَ مبْهوراً، وراقبَهَا مفْتوناً، وأنصَتَ إليْهَا مذْهولاً.. فقدْ كانتْ جميلةً جَمالاً لمْ تقعِ العَيْنُ على شَبيهٍ له فِي أيِّ مكانٍ، ولمْ تروِ القِصَصُ والأَساطِيرُ عنْ مثيلٍ لهُ فِي أيِّ زمانٍ.. فقدْ كانتِ ابْنةُ الحطَّابِ معتدِلَةَ القَوَامِ، لا نَقصَ فِيهَا ولاَ زيادَةَ، قَدُّهَا كأنَّهُ غصنُ البَانِ، خَفِيفةٌ رشِيقَةٌ كأنها فَراشَةٌ تمرحُ في حَدِيقَةٍ. أمَّا وجهُهَا فكانَ سبْحانَ الخَلَّاقِ: عيناهَا لَوْزِيَّتَانِ فِيهِمَا كُلُّ الألوانِ، وشَفَتاهَا نَاضِجتانِ كأنهما حبَّاتِ الرُّمَّانِ، وأنفُها دَقِيقٌ صغيرٌ كأنها مِنَ الأمِيراتِ.. وكانَ شعرُهَا مثلَ سُلوكِ الذَّهبَ ينسدِلُ فوقَ

كتفيْهَا، وتطوِّحهُ النَّسائِمُ حـوْلَ وَجهِهَا، أمَّـا صوْتُهـا فكانَ عـذْباً شجيًّا، كتغرِيدِ البَلابلِ أو زَقزقَةِ العَصافِيرِ وقْتَ الرَّبِيع.

فُتنَ «أمين» بـرؤيةِ ابْنةِ الحـطَّابِ بـالـرَّغمِ منْ مــلابِسِهَـا المتوَاضِعَةِ الفَقيـرَةِ، وأذهَلَهُ حسْنُها، الَّـذِي لـمْ يصادِفْ مثلَهُ في أيِّ مكـانٍ.. فوقَفَ مـذْهـولاً حتَّى أنـهُ لم يقـدِرْ عَلَى النُّـطْقِ أوِ الحرَكة.

وعنـدَما شَـاهَدَتْـه ابنةُ الحـطَّابِ، أصابَهـا الحيَاءُ، وتـورَّدَ وجهُهَـا بِحُمْرَةِ الخَجـلِ، وتوارتْ خلْفَ عـربةِ الحـطَبِ، وأقبلَ والدُهَا نحوَ «أمين»، وسألـهُ عمَّا يُـريدُ، فـأجابَـه: «أيُّها الحـطَّابُ الطيِّبُ، لقدْ جئتُ طالباً يـدَ ابنتِكَ، وأُريـدُهَا أنْ تكـونَ عَروسِي منذُ السَّاعَة».

تأملَ الحطَّابُ الفقيرُ «أمين»، ولاحظَ ثيابَه الغالِيةَ وجواهِرَه الثمينَةَ وعطُورَه النادرَةَ، وقالَ لـه: «ولكِنَّكَ لمْ تخبـرْنِي من تكُون أيُّها الشّاب».

أجابَه «أمين»: وهلْ يوجَدُ إنسَانٌ لا يعرِفُ شهبَندرَ التُّجار؟»

قــالَ الحطَّاب: «أَنت إذنْ «أمين» شهبندَرُ التُّجــارِ، وابنُ شهبندَرِ التُّجار».

قالَ «أمين»: نعمْ أنَا هُوَ. . ولا بدَّ أنكَ سمعْتَ الكثيرَ عنْ ثَرائِي، فأنَا أملِكُ من المَالِ ما لَا يملكُه إنسَـانٌ، ومنَ الجَواهِـرِ ما لَا تجِدُه فِي أيِّ مكـانٍ، ومِنَ الحرِيـرِ والأَقمشةِ مـا يمْلأُ ألفَ دكَّانٍ، ومنَ القُصورِ أفخمَهَا ومنَ الأَرضِ أجوَدَهَا».

سألهُ الحطَّابُ: «وماذا سيكونُ مهرُكَ لابنتي؟»

أجابَ «أمين»: «أُطْلُبْ ما تشَاءُ أيهَا الحَطَّابُ، وكلُّ ما تَطْلبُهُ سألبِّيهِ لَكَ فِي الحَالِ، فَلا شيْءَ فِي هَذهِ الدُّنيَا لَا أملُكُـه. . إنْ طلبتَ قصْراً أهديتُه لَكَ، وإنْ طلبْتَ مالاً وهبتُه لكَ، وإنْ طلبتَ جواهِرَ منحتُها لكَ، أمَّا الحرائرُ والملابِسُ فاغتَرِفْ منْها ما تشـاءُ بِلَا حِسَابٍ».

وكَشفَ عَنِ السِّلالِ فوقَ ظهـورِ البغَالِ، فـظهَرَ فِيهَـا مَالٌ كثِيرٌ، وذهبٌ وفضَّةٌ وجَواهِرُ ولآلئُ، وملَابسُ وحَرائِـرُ، وكلُّ مـا يَشتهِيهِ الإنْسان.

ولكنَّ الحـطَّابَ الفقيـرَ لمْ يجـذبْـهُ منـظرُ السِّـلالِ، أو الجوَاهِرِ والمَالِ، وقَالَ «لأَمِين»: «كُلُّ هذا لَا يُفيدُ، لقدْ تقدمَ ألفُ

عريسٍ يطلبُونَ يدَ ابنَتِي، وكانُوا يملكُونَ الكثيرَ الكثيرَ، ولكنْ ليسَ هذَا ما يطْلبهُ حطّابٌ فقيرٌ، يرغبُ في تزويج ابنَتِهِ».

تعجَّبَ «أمين» وقالَ: «وماذا تطلُبُ إذَنْ أيُّها الحطَّاب، إنْ كنتَ تريدُ مَالاً أكثرَ فهوَ عندِي، فإنْ شئتَ جئتُكَ بما يمْلأ كوخَكَ ويفِيضُ، وإنْ رغبتَ في الجوَاهِرِ أعطيتكَ منْها ما يمْلأ خَزائنَ ملِكٍ أو أميرٍ. . أمَّا إذا أردْت أرضاً وهبتُكَ منْهَا مَا تَمْرَحُ فيهَا الخَيْلُ، فلاَ تبلغُ نهايتها قبلَ نهار».

قالَ الحطَّابُ: «كلُّ هذَا لا قِيمَةَ لهُ عنْدِي، وَقدْ عرضَ آخرونَ، عظَماءُ وأثرياءُ، وُزراءُ وأمراءُ، أنْ يمنحُوا ابنتِي ما عرضتَهُ وأكثرَ، ولكنْ ليسَ هذَا هوَ ما تطلُبُهُ ابنَتِي».

زادتْ دهشةُ «أمين» وَحَيْرَتُهُ، وتطلَّعَ نحوَ ابنةِ الحطَّابِ، الفَاتنةِ الجمَالِ، وسألَهَا: «وماذا تطلُبِينَ مهْراً لكِ أيتُها الحسْناءُ الفاتِنةُ، والدّرةُ الغَالِيَة؟»

إبْتَسَمَتْ ابنةُ الحطَّابِ، وأشرقَ وجهُهَا كأنهُ شمْس تُشرقُ من وَراءِ السَّحابِ، أو قَمرٌ يغمُر السّماءَ بالضّياءِ، وتعطَّرَ الهوَاءُ بأنفاسِهَا وهِيَ تقولُ: «ما أريدُه هوَ الجوهرةُ الغَالِيَة».

قَالَ «أمين» مندهِشاً: «وأينَ أجِدُ هذِه الجوْهرة؟»

أجابتْه ابنةُ الحطَّاب: «إنَّكَ ستجدُهَا فِي كُلِّ مكانٍ.. فقطْ عليْكَ أنْ تُدْرِكَ قيمتَهَا، حتَّى تجدَ نفسَكَ قدِ امْتَلَكْتَها!»

تحيَّرَ «أمين»، وظهَرَ العجَبُ علَى وجهِهِ، وسأَلَ ابنَةَ الحطَّابِ: «وأينَ أستطيعُ شِراءَ مثلِ تِلْكَ الجوهَرةِ الغَالِيَة؟»

فأجابتْهُ: «هَذِهِ الجوهَرةُ بالذاتِ، لا يُمكنُ لإنسَانٍ شراءَها منْ أيِّ مكانٍ».

قالَ «أمين» بحيْرةٍ أكبرَ: «ومنْ أينَ إذنْ سأحصُلُ عليْهَا، إنْ لمْ أشْتَرِها؟»

ربتَ الحطَّابُ الفقِيرُ علَى كتفِ أمينٍ وقالَ لهُ: «هَذَا هوَ السؤالُ، الَّذِي لا يمكِنُ أنْ يُجيبَ عليه إنسانٌ غيرُكَ، فاذْهبْ يا بُنيَّ، وعُدْ متَى امتلكتَ الجوهَرةَ الغَالِيَة».

فأطرقَ «أمين» برأسِهِ حزِيناً، وركبَه الغمُّ وكساهُ الحزْنُ، وعادَ إلَى قصْرهِ، ومعهُ خدَمُهُ وسِلالُهُ، وجَواهِرُهُ ومالُهُ، وقدْ تعلَّقَ قلبُهُ بابنةِ الحطَّابِ، ووقعَ في حبِّهَا، فلمْ يهنَأْ لهُ بعدَهَا طعَامٌ ولَا شَرابٌ، وفِي كلِّ لحْظةٍ كانَ يسْألُ نفْسهُ: «مِنْ أينَ

يُمْكِن للإنسَانِ أنْ يحصُلَ علَى هذِهِ الجوْهرةِ الغَالِيَةِ. . لـو كنْتُ أعرِفُ مكانَها، أَوْ مَنْ يَبِيعُهَا، لدفعْتُ فِيهَا كلَّ ما أملُك».

ثمَّ تَذَكَّـرَ قولَ ابنةِ الحطَّابِ، بأنَّ هذِهِ الجوْهرةَ لا تُباعُ ولاَ تُشتَـرَى، فَـأَدْرَكَـهُ اليَـأْسُ وَٱسْتَـوْلَتْ عَلَيْـهِ الحَيْـرَةُ، فِي كَيْفِيَّـةِ الحصُولِ علَى تِلكَ الجوهَرةِ الثَّمينة.

وقررَ «أمين» السَّفرَ والترحالَ: فشـدَّ الرِّحالَ، وسافرَ إلَى كُلِّ البلاَدِ، القَريبةِ والبعِيدَةِ، بحثاً عَنِ الجوْهـرةِ الغَاليـةِ، بدُونِ أنْ يعثـرَ لهَا علَى مكانٍ. فعادَ حـزيناً متـألِّمـاً، وبعَثَ منْ يسـأَلُ عنْ أحـوالِ ابنةِ الحـطَّابِ، فوجـدَهَا لا تـزَالُ لم يخـطُبْهـا إنسـانٌ، وتَشترِطُ أولاً أنْ يأتيَهَا خَاطبُهَا بالجوْهرَةِ الغَالِيَةِ، أيًّا كانَ، حَـطاباً فقيراً أو شهبندَراً للتجار!

* * *

وذاتَ ليلةٍ كانَ «أمين» ساهراً في شُرفة قَصْرِه، وقدِ اسْتولَى عليْـه الأَرقُ وجفَاهُ النَّـومُ، وهوَ يُفَكِّـرُ فِي الجوْهـرةِ الغَاليـةِ الَّتِي تَشترِطُهَا ابنَةُ الحطَّابِ لزوَاجِها.

وخـارجَ القَصرِ فَجـأةً برَق البـرقُ، ودوَّى الـرَّعـدُ، وسقَطَ المـطَرُ غزِيـراً، وأسْرَعَ النَّـاسُ يحتَمون فِي منـازِلهِمْ منَ المـطَرِ

والبـرْدِ، حَتَّى فرغتِ الـطُّرقـاتُ مِنَ النَّـاسِ الَّـذينَ هـرَبُـوا إلى فِراشِهِمْ، طلباً للدفْءِ والنَّوم . ولكنَّ أميناً ظـلَّ علَى جَلستِهِ فِي مكانِهِ لا يحُسُّ بمطَرٍ وَلا بردٍ.

وفجـأةً طُرِقَ بـابُ القصْرِ، فانْتَبَهَ «أمين» مَـدهُـوشـاً وقـالَ لنفْسهِ: «تُرَى مَنِ الطَّارِقُ، ومَاذَا يُريدُ فِي هَذَا الجَوِّ العَاصِفِ؟»

وفتحَ الخدَمُ البَابَ، فشاهَدَ شَيْخاً عجُوزاً، مُغَضَّنَ الوَجْـهِ مَحْنِيَّ الظَّهرِ، تبلَّلت ملابِسُهُ ولحيَتُـه بالمَـاءِ، وحمَلَ فـوْقَ ظهرِه صُرةً كبيرَةً.

سألَ الخدَمُ الشيخُ بخشونَةٍ: «ماذا تُريدُ أيُّها الرَّجُل؟»

فارتجَفَ الشيْخُ العجُوزُ وقالَ: «لَسْتُ أرِيـدُ غيرَ قليـلٍ مِنَ الـدِّفءِ والطَّعـامِ، فـإنَّني رَجـلٌ غـريبٌ عنْ هـذَا المكَـانِ وقـدْ أضْنانِي الجوعُ وآلمَنِي البرْدُ، وليسَ لِي مأْوًى ألجأُ إلَيْهِ».

دفـعَ الخـدمُ الشيـخَ العجُـوزَ بـأيـدِيهمْ، وصـاحُـوا فيـهِ غَاضبينَ: «إذْهَبْ عنَّا أيهَا المتسوِّلُ، فليسَ هَذَا القصْرُ ملجـأً لكَ ولأمْثَالِكَ».

ولكنَّ «أمين» تَقَدَّمَ نحوَ الرجُلِ العجُوزِ وقالَ لهُ: «أُدْخُلْ أيهَا الرَّجُل».

وأمرَ خدَمَهُ بأَنْ يبدِّلُوا ثيَابَ العَجوزِ بأخْرَى جَافَّةٍ، وأنْ يطعِمُوهُ ويُحسِنُوا معَاملَتَهُ، فدعَا لهُ العجُوزُ شاكِراً.

وعندَما بدَّلَ العجُوزُ ملابسَهُ، وتناوَلَ عَشاءَهُ، جلَس أمامَ المِدْفأةِ متلذِّذاً بالدِّفءِ، فسألَه «أمين»: «أيُّها الرَّجلُ العجُوزُ. لقدْ قطعْتَ منَ الدُّنيَا أعْواماً طويلَةً، ولديْكَ مِنَ الخِبرةِ معَارفُ كَثيرةٌ، ولا بدَّ أنكَ تعرِفُ أينَ تُوجدُ الجوْهرةُ الغَاليةُ، فدُلَّنِي عَلَى مكانِهَا وأمنحُكَ ما تَشاء».

أجابَ العجُوزُ: «إنَّ الجوهَرةَ الغَاليةَ فِي كُلِّ مكانٍ.. فقطْ عليكَ أنْ تدرِكَ قيمتَهَا، حَتَّى تجِدَ نفسَكَ قدِ امْتَلَكْتَهَا».

تعجَّب «أمين» وقالَ لِلشَّيخِ العَجُوز: «هَذَا هُو ما قَالتهُ ابنةُ الحطَّابِ.. ولكِنْ أرجوكَ أنْ تَزيدَنِي إيضَاحاً».

تثاءبَ العجوزُ وقالَ: «لَيْسَ عندِي مَا أُزيدُهُ أكثرَ ممَّا قلتُـهُ، والآنَ يَجبُ أنْ أَنَامَ بعدَ أنْ أَطْمَئِنَّ علَى أشْيائِي وممتلكَاتِي».

وفتـحَ الرجُـلُ العجُوزُ صُـرَّتَهُ، فَشَاهَدَ «أمين» فيهَـا أشْيـاءَ عديدَةً لا قيمةَ لهَا، أوراقاً قَديمةً وأسمالاً، ولكنَّه لمحَ شَيئاً يبرقُ داخِلَ الصُّرةِ، كأنهُ شمسٌ صَغيرةٌ، أوْ نجمَةٌ، ويتألَّقُ البرِيقُ منـهُ بنورٍ باهِرٍ.

ذُهِلَ «أمين» وقالَ لنفسِـهِ: «لا بـدَّ أنَّ هـذِهِ هيَ الجـوْهــرةُ الغَاليةُ، فلاَ توجَدُ جوهَرةٌ في العَالمِ تَبرقُ مثلَ هذِه الجَوْهَرَة».

وهتفَ فِي الشَّيخِ العَجُوزِ: «أيُّها الرَّجـلُ، هَلْ تبيعُنِي تلكَ الجوهَرةَ التِي تبرُقُ في صُرَّتِكَ؟»

أجابَه الشيخُ العجُوزُ: «هَذِهِ الجوْهـرةُ لاَ أستَطِيـعُ بيعَهَا ولاَ بكلِّ كنُوزِ الدُّنْيا».

ونامَ العجُوزُ بعدَ أنْ أسندَ رأسهُ فوقَ صُرتِه، فَكَظَمَ «أمين» غيـظَهُ وقالَ لنفْسهِ: «هَذَا العجُـوزُ الخبِيثُ، إنـه يَـدَّعِي بِعـدَمِ معـرفَتهِ بِمَـكانِ الجوهَـرةِ الغالِيـةِ لأنَّهُ يملكُهَـا، وهُو يـرفُضُ أنْ يبيعَهَا لِي بأيِّ ثمنٍ. إذنْ فسوْفَ أَحصلُ عليهَا بلاَ مالٍ».

وانتظرَ حتَّى اطْمأنَّ إلَى اسْتغراقِ العَجوزِ في نَـومِهِ، فمـدَّ يدَهُ نحوَ صرتِه، وفتَحَها بكلِّ حذرٍ وأخرجَ منها الجوْهـرةَ، وأخذَ

يتأملُهَا مبْهُوراً، فقَدْ كانتْ جوهرةً كبيرةً عَجيبةً، لم يشَاهـدْ مِثلَها فِي أيِّ مكانٍ، حجْمُها مثلُ التفَّاحةِ أوِ البرتُقـالةِ الكَبيـرةِ، تلْمَعُ كـأنهَا المَـاسُ، ويصدُرُ عنْهـا برِيقٌ متـوهِّجٌ بكـلِّ الألوانِ، حَتَّى تكادُ تُعمِي الأَبصَارَ بسببِ وَهْجِهَا وبَريقِهَا.

وأخفَى «أمين» الجوهَرةَ تحتَ وِسادَتِهِ، ونَـامَ مسروراً وهُـو يتعجَّل شُروقَ الشَّمس.

وَفِي الصَّبـاحِ غَـادرَ الشَّيـخُ العجـوزُ المكـانَ، بِـدُونِ أنْ يبحَثَ فِي صُـرتِه عِنْ جَـوهرتِـه، فقالَ «أمين» فِي نَفسِهِ مبتهِجاً: «الآن صارتِ الجوْهرةُ ملكِي، فلأُسْرِعْ بِهَا إلَى ابنَةِ الحطَّاب».

وأخـرجَ الجوهَـرةَ منْ تحتِ وسادَتـهِ، ولكنْ عجبـاً، مـاذَا حدثَ للجوهَرةِ، ولمَاذَا انطفأَ بريقُها وخبَا، ولمْ يعدْ يَصـدُرُ منْهَا أيُّ بريقٍ أوْ شُعاعٍ، كأنَّها قِطْعَةٌ مِنَ الزُّجاج.

صاحَ «أمين» مذهُولاً: «ماذَا جرَى للجوهَرةِ، ما الَّذِي حَدَثَ لهَا وأطفَأَ بريقَهَا، فصارتْ عدِيمةَ القِيمَةِ؟»

وفِي نفْسِ اللَّحظَةِ دخَلَ حراسُ القَصرِ صَـارخينَ: «أدْركْنا يا سيِّدَنا. لقد نهَبَ اللُّصوصُ الخزائِنَ في اللَّيلِ، فسرَقـوا كُلَّ

ما فِيهَا مِنْ مالٍ وجوَاهِرَ، وحَطَّمُوا أبوابَ الـدَّكاكِينِ والأَقفـالِ، وسرَقُوا منْهَا البضَائِعَ والأَحْمال».

وقبـلَ أنْ يُجِيبَ «أمين» بشيْءٍ إنْـدَفَـعَ مـزارِعُو أرضِـهِ إلَى قصْرِهِ، وصَاحُوا مفزُوعَينَ: «أَغِثْنَا يا سيدَنَا. . لقـدْ شَبَّتِ الحرائِقُ في أرضِكَ، فأهلَكتِ الزَّرعَ وأحرقَتِ الماشِيَةَ، وتـركَتِ الأرضَ خراباً قفْراً ينعَقُ عليْها البُوم».

وفِي نفْس اللحْـظةِ حـدَثتْ رجَّـةٌ في المَكـانِ، وزلـزلَـةٌ هـائِلةٌ، فاهتـزَّتْ جُـدرانُ القَصْـرِ، وانقلبَتِ المَـوائـدُ وتبعثَـرتِ المقَـاعِدُ، فصـرَخَ الخدَمُ مفـزوعِينَ: «أَنْجِدْنَـا يـا سيِّـدَنَـا. . إنَّ القصرَ يتعرضُ لزلزَالٍ، ويُوشكُ أن يسقُطَ في الحَال».

واندفعَ الجميعُ هاربِينَ قبلَ أنْ يقعَ القصرُ فوقَ رؤوسِهِمْ. وفِي لحـظَاتٍ تحوَّلَ القَصـرُ إلَى كَوْمـةٍ منَ الأحجـارِ والتـرَابِ، فامتلأَتْ عينَا «أمين» بالدُّموعِ، وأجْهشَ بالبُكاءِ وقَالَ لِنفْسِهِ: «لقدْ خَسرْتُ كلَّ شيْءٍ. البضَائِعَ والمـالَ، والأرضَ والقصْرَ. لقـدْ صِرْتُ فَقيراً لا أملِكُ أكثرَ مما أرتدِيهِ منْ ملابس».

وتـأملَ الجـوهرةَ التِي سـرقَها مِنَ الشَّيـخِ العجُوزِ، وقـالَ حزيناً متألماً: «وَحَتَّى هذِهِ الجوهَـرة لم تعدْ تسـاوِي شيْئاً. . لقـدْ

صِرْتُ فقيراً جداً. . أفقرَ منْ أيِّ إنسَـانٍ. . ولا بدَّ أنَّ مـا حدَثَ لَي كانَ بِسَبَبِ سَرقتي لِلجوْهرةِ وخِيانَتِي للأَمانَـةِ. . لقدْ أوصَـانِي والدِي وصَايَا عدِيدةً لم أنفِذْهَا، فقد نهَـانِي عنِ المالِ الحـرَامِ لأنـهُ يذْهَبُ بـالحَلالِ فلم أسمـعْ وصيتَـهُ، فضَـاعَ منِّي كـلُّ مـا أملِكُهُ».

ونظَرَ حولَهُ حزيناً فشاهَدَ الخَرائبَ والـدَّمارَ حَـوْلهُ فِي كُـلِّ الأَنحـاءِ، فقالَ حـزِينـاً: «لَمْ يَعُـدْ لِي بقـاءٌ في هَـذَا المكـانِ. . فلأذْهَبْ بحثاً عنْ ذلِـكَ الشَّيخِ العَجُـوزِ وَأردَّ لهُ جـوهرتَـهُ، علَّ ذلِكَ يخفِّفُ من ذَنبِي ويسامِحُنِي رَبِّي».

وسـألَ خدمَـه: «أينَ اتَّجهَ العجُـوزُ الـذِي قَضَى الليْـلَ فِي القصْرِ قبْلَ هَدْمِهِ؟» فأخْبَرُوهُ بجهَةِ الشيْخ ، فأَخفَى «أمين» الجوْهَرَة في صَدرِه، وأسرَعَ يقتفِي أثرَ الشَّيخِ العجُوزِ، ليردَّها لَهُ.

* * *

قضَى «أمين» أيَّاماً طويلةً وهوَ يبحثُ عنِ الشَّيـخِ العَجُـوزِ بدُونِ أن يعثُرَ لهُ علَى أثرٍ، أو يعرِفَ وِجهَتَهُ. وأدركَـهُ التعَبُ ولمْ يكنْ قـدِ ارتاحَ إلاَّ سـاعَاتٍ قَليلةً، ولمْ يـأكلْ غيـرَ لُقيماتٍ قليلةٍ اشْتراهَا بآخرِ درْهمٍ كانَ في جَيْبِهِ.

وسقطَ من الجُـوع والإعياءِ، فتلقَّفـهُ رجـلٌ عليْـه مـلامِـحُ الطِّيبةِ وقالَ لَهُ: «ما بالُكَ يا بُنَيَّ.. إنكَ تبْدُو متعباً مَكْدوراً فتعَالَ واسترِحْ في بَيْتي، فإنَّني أعيشُ فيـهِ وحْدِي، فليسَ لِي أحِـدٌ فِي الدُّنيا غيرَ ابنٍ يعيشُ بعِيداً عنِّي فِي أطْرَافِ المدينَة».

وأخَذَه الرجلُ إلى بيْتِهِ فأطعَمَهُ وأرقـدَهُ فوقَ فِـراشِهِ، فنَـامَ «أمين» فِي الحَالِ لشدَّةِ تَعَبِـهِ. وفي الصَّباحِ إسْتَيْقَظَ نشِيطاً وهوَ يُحسُّ بـالقوَّةِ والصِّحَّـةِ، ونَادَى عَلَى صَـاحِبِ البيْتِ فلمْ يسمَـعْ رداً، فانْدهشَ وذَهَبَ يبحَثُ عنْهُ، فوجدَهُ راقداً أمامَ خزانتِـهِ وقد فارقتْه الحياةُ، فبَكَاهُ «أمين» وقالَ: يَا للرَّجلِ المسْكينِ، لولاَي ما أحَسَّ إنْسانٌ بموتِهِ أو شَعُر بنهايَتِهِ».

ووقعتْ عيناهُ على خِزانةِ الرجلِ الميِّتِ، وكانتْ مفتوحةً، فشـاهَدَ فيهَا «أمين» مَالاً كثيـراً، وذهَبـاً وفضـةً، وجـواهِـرَ ولآلِئَ تُساوِي ثروةً عظِيمةً.

ولكنَّ «أمين» أغمضَ عينيـهِ عنْ تلكَ الأَشيـاءِ، ونهضَ فِي الحَالِ فدفَنَ الرَّجلَ الميِّتَ وحمَلَ كلَّ ما وَجدَهُ في خِزانَةِ الرجلِ الذي آواهُ، وسأَلَ عنْ ابنـهِ حتَّى وجدَهُ، فسلَّمـه كلَّ مـا كانَ في

خِـزانة والـدِهِ، فـانْـدهشَ الابنُ وقالَ «لأمين»: «إنك شَـابٌّ أمينٌ حقـاً.. وتستحِقُّ المكافـأَةَ.. سأمنحُـكَ من مَالِ والـدِي مـائـة دينَارٍ».

ولكنَّ أميناً رفضَ أنْ يُكافـأَ علَى أمانَتِـه، وغادَرَ المـدِينةَ، وظلَّ سائراً يبحَثُ عن الشَّيخِ العجُـوزِ صاحِبِ الجـوْهرةِ، حتَّى أصابَه التَعبُ فجلسَ يسترِيحُ فِي ظِـلِّ شَجرةٍ، ووقَـعَ بصرُهُ على الجوْهرةِ، فـأدهَشهُ تغيُّـرِ حالِهَـا، فقدْ بـدأتْ تلمعُ بضـوءٍ أصفرَ شاحبٍ، كأنهُ ضوءُ النُّجوم البعِيدَة.

وفِي المسَاءِ شاهَدَ «أمين» قافلةَ حـاكمِ البِلاَدِ، مِنَ الجِيَـادِ والجِمَـالِ والبِغَـالِ، وقَـدِ ارتصَّتْ فـوقَهَـا السِّـلالُ والأَحمالُ، وجُنودٌ كثيرُونَ يقُومُون بحمَايتهَا وحراسَتِها.

وشردَ أحدُ البغَالِ عَنِ القَافلةِ بدُونِ أن ينتبِهَ إِلَيْهِ الحرَّاسُ بسبَبِ الـظَّلامِ، فاقْتـربَ منْ أمينٍ، وأَسقطَ ما كـانَ يحمِلهُ فوقَ ظهْرِهِ، فتبعْثَرَ مِنَ السِّلالِ، ذَهبٌ وفضَّةٌ ودنانيرُ، ومالٌ كثِيرٌ.

نَهَضَ «أمين» بسـرْعةٍ، وأعادَ السِّـلالَ فـوقَ ظهْـرِ البَغْـلَ، وعبَّأهَا بِمَا سقَطَ منْهَا وقادَ البغْلَ بسـرْعةٍ خلفَ القـافِلةِ، فلَحِقَها

بعْد وقتٍ، وَأَخْبَرَ قائدَهَا بمَا كانَ مِنَ البغْلِ الشَّاردِ، فنظرَ قائِدُ القَافِلَةِ «لأمين» بإعجَابٍ وقالَ: «إِنَّكَ شابٌّ أمينٌ حقًّا وتَستحِقُّ المكَافأة. . سأمنحُكَ ألفَ دينَارٍ جزاءً لكَ على أَمانَتِكَ».

ولكنَّ «أمين» رفضَ أن ينالَ مكافأةً عنْ أَمانتِهِ غيرَ حفنَةٍ منَ التَّمرِ، يُشبعُ بهَا جُوعَهُ، وزُجاجةِ ماءٍ يروِي بهَا عطَشَهُ.

ومرةً أخرَى وقعَ بصرُ «أمين» علَى الجوْهرةِ، فوجدَهَا وقدْ زادَ بريقُهَا، وبدأتْ تلتمعُ كأنهَا شمسُ الشِّتاءِ البَاردة.

* * *

قَضَى «أمين» أيَّاماً أخْرَى فِي بَحْثِهِ، واشْتدَّ بهِ الضَّعفُ والهُزَالُ، بِدُونِ أن يعثرَ لِصاحبِ الجوْهرةِ علَى أثرٍ، وأحسَّ بالجوعِ يَفرِي أمْعاءَهُ. وأمطَرتِ السَّماءُ مطَراً شدِيداً كأنهُ السَّيلُ، وبرُدَ الجوُّ برداً لاَ مثيلَ لهُ، فارتَجَفَ «أمين» منْ شِدَّةِ البرْدِ، وتقلصَتْ أمعَاؤهُ من قسْوةِ الجُوعِ، وغَرِقتْ ثيابُهُ فِي المطَرِ وقدَماهُ في الوحَلِ. وشاهدَ علَى البعْدِ كُوخاً كبِيراً تَشُعُّ النَّارُ منْ داخِلِه، ويبينُ أنْ قوماً يسْتدفئُونَ فيهِ، فأَسْرَعَ «أمين» نحوَه وطرَقَ بابَهُ، فانفتَحَ البَابُ، وَشَاهَدَ «أمين» بالدَّاخِلِ قوماً يأكلُون

ويشـرَبُون ويستـدْفِئُونَ بـالحَطَبِ، وهم لاهـوُنَ سعدَاءُ، وسـألَ أحدُهُمْ: «ماذا تريدُ أيُّها الشَّابّ؟»

أجابَه أمينٌ منكسِراً « لستُ أرِيدُ غيرَ كِسرَةِ خُبزٍ وقليلٍ مِنَ الدِّفءِ، وأَرجُو أنْ تَأْوِينِي إلى الصَّباح فِي هَذَا الكُوخِ الدَّافئِ لأحْتميَ مِن ماءِ المطَرِ وَبَرْدِهِ».

ولكن الرَّجلَ دفعَـهُ في صدْره بخشُـونةٍ وقـالَ: «إبْتَعِدْ أيهَـا المتسـوِّلُ، ليسَ هَذَا المكـانُ لأمثالِـكَ، فلا دِفءَ لَـك هُنـا ولاَ طَعَام».

وأغلقَ الرجلُ البابَ بِوَجْهِ «أمين»، فَتَبَلَّلَتْ عَيْنَاهُ بالدُّموعِ، وقـالَ لنفْسِه نـادِماً: «إنَّني أستحقُّ هـذِه المُعَامَلةَ، فكمْ من مـرةٍ أغلقْتُ بَابِي فِي وجُوهِ الجوْعَى والمسَاكِينِ، وتـركْتُ نفسِي أنعَمُ بـالطَّعـامِ والـدِّفءِ، دُونَ أنْ أفكِّـرِ فِي غَيْـرِي مِنَ الجـائِعِينَ والمقْرورِينَ. . الآنَ فقطْ أدركْتُ قيمةَ وصيَّةِ والِديَ. تـرى بماذَا أغْنانِي مَالِي، فقدْ ضاعَ كلُّه ولمْ يبقَ منْه شيءٌ، ولو كنتُ قدَّمتُ عمـلاً صالِحـاً لـرُدّ إليّ ونفعَنِي. . قَـال لِي وَالِـدِي مِنْ قبـلُ أنَّ الصَّـدقَةَ تـزِيدُ مـالَ الإنسَانِ، وقَـدْ أضعْتُ مـالِي ببخْلِي وشُحِّي وعدَمِ أَمَانَتِي».

وواصـلَ سيرَه تحتَ المـطَرِ فِي الأَوحـالِ وظهـرَ لـهُ على البُعْدِ قَصرٌ عظِيمٌ، يَنِمُّ عنْ أنَّ صاحبَهُ ملكٌ أوْ أمِيرٌ، فَلَجأَ «أمين» إليْـهِ، وخَشيَ أنْ يطرُقَ بـابَهُ لئـلَّا يطْردَهُ خـدمُـهُ، فجلَسَ تحتَ شرفَتِه محْتمياً منَ المطَر.

وفجأةً انفتحَ بابُ القَصرِ، وأطَلَّ منهُ بعضُ الخدَمِ، وقَالُوا «لأمين» مندهِشينَ: «لِمَاذا لمْ تطرُقِ البَابَ أَيُّها الشَّابُّ، فَما أغلقَ صاحِبُ القصْرِ بابَهُ أمـامَ سائـلٍ أو مُحتاجٍ، فقـد كَانَ هـو أيضاً فقيراً، وأغنَاه اللَّهُ، فصارتْ لهُ القُصورُ والضِّياعُ، ولكنَّه لمْ ينْسَ أبداً ما كَانَهُ، ولَولاَ أن رأينَاكَ من نَوافذِ القَصرِ، لربَّما متَّ جُوعـاً أو بَرْداً».

وَأَخذُوا «أمين» إلَى الـدَّاخِلِ، فألبسُوه ثيـاباً جـافَّةً غـاليَةً، وأطْعموهُ طعَامـاً ساخِنـاً لذيـذاً، وأرقَدوهُ فـوقَ فِراشٍ منْ ريشِ النَّعامِ. فزادَ تعجُّبُ «أمين»، وطلبَ مقابلَةَ صاحبِ القصْـرِ، فلمَّا دخَـلَ حجرتَـهُ وشاهَـدَ هيئَتهُ عـرفَهُ في الحَـالِ، فقدْ كـانَ أحـدَ الفقراءِ الَّذِينَ اعْتادَ والدُهُ قبْـلَ وفاتِـهِ التَّصدقَ عليهِمْ، ولمْ يغلِقْ يوماً بابَهُ في وجْهِه.

قَالَ صاحبُ القصْرِ «لأَمِين»: «إنَّني أرُدُّ لـوالــدِكَ دينـاً فِي عُنقِي. . فبعْـدَ الفقْـرِ رزقَنِي اللهُ الغِنَى، وبعْـدَ الجُوعِ مــلأنِي بـالشَّبعِ ، فسبْحـانَ مغيِّرِ الأَحـوالِ ، ورَحمَ اللهُ شهبندَرَ التُّجـارِ والدَكَ، فلولاَهُ لَمُتُّ جوعاً أو برداً في يومٍ منَ الأَيـامِ . . وهأنـذَا أردُّ دينَه إليْكَ وإلَى غيرِكَ».

فَبَكَى «أمين» بكاءً مرًّا، وتـذكَّـر والـدَهُ ونصيحَتَـهُ، وكيفَ تجـاهَلَها وغلبَـهُ الـطمَـعُ والجشَـعُ، فِي حِين أنَّ ذلـكَ الـرجـلَ الغريبَ كان أبرَّ منْه في تنفِيذِ وصيَّةِ والدِه.

وفي الصَّباحِ غَادَرَ «أمين» القَصْرَ محمَّلاً بالـزَّادِ، وواصـلَ تجوالَهُ بحْثاً عَنْ صاحِبِ الجوْهرةِ، وساقتْه قـدمَاهُ بعـدَ أيَّامٍ إلَى خَـانٍ كَبِيرٍ، صـاحِبُـهُ يَبِينُ عليْـه الثَّـراءُ. فـطَلَب مِنْـهُ «أمين» أَنْ يَبِيتَ لَيْلَتَـهُ عِنْـدَهُ، ولَكِنَّ صــاحِـبَ الخـانِ رَفَضَ أَن يَـبِيـتَ «أمين» في خَـانِـهِ، لعَـدَمِ وجُـودِ مـالٍ معَـهُ، فـافتـرشَ «أمين» الأَرضَ بجوارِ سُورِ الخَانِ في المسَاءِ، ثم اسْتيقَظَ مـذْهوشـاً فِي مُنتصفِ اللَّيــلِ ، علَى صــوْتٍ غيــرِ عــادِيٍّ. وسمِــعَ بـعضَ اللُّصوصِ يتشاورُونَ لسرِقَةِ خزانةِ صـاحِبِ الخَانِ وقتْلِهِ، بسبَبِ بُخْلِه وشُحِّـهِ، وتكدِيسِـه للذَّهبِ والمَـالِ ، فـأسـرعَ «أمين» إلَى

صاحِبِ الخَانِ وأيقظَهُ، وأخْبرهُ بأمرِ اللُّصوصِ ، فأمسكَ بهمْ مَعَ خدَمِهِ، وساقَهم إلَى القَاضِي، ثم عادَ لأمينٍ باكياً: وقالَ: «لَا أدْرِي كيفَ أشكرُكَ أيُّهَا الشَّابُّ، لقدْ أنقذْتَ حيَاتِي ومَالِي، فِي حِينِ أَنني بَخلتُ عليْكَ بحُجرةٍ في خَانِي، إنَّنِي لا أدْرِي كيْفَ أكافِئكَ أيهَا الشَّابُّ الأَمينُ الكرِيم».

قَالَ «أمين»: «فَلْتَكُنْ مكافأتُكَ لِي، هيَ أنْ يكونَ بابُكَ مفتُوحاً لكلِّ طالِبٍ أو مسْكِينٍ، ولَا تَكْتَنِزْ منَ المالِ ما يَفيضُ عنْ حاجتِكَ، وإلا عادَ عليْكَ بالضَّرر».

وغَادَرَ «أمين» المكانَ، وهوَ لا يزَالُ يبْحَثُ عنَ العَجُوزِ صاحِبِ الجوْهرةِ ليردَّهَا لَهُ، وانتبَهَ منْدهشاً إلَى أنَّ الجوهَرةَ عادَتْ تَضوِي كما كانَتْ، وتتألَّقُ بكُلِّ الألوانِ، كأنهَا شمْسٌ صَغيرَةٌ، أو نَجْمةٌ متألِّقَةٌ. فتهلَّلَ وَجْهُ «أمين» وهتَفَ بفرحَةٍ: «لَقَدْ عادَتِ الجوْهرةُ كما كَانَتْ.. حمْداً للَّهِ.. تُرَى أيْنَ هوَ صاحِبُهَا لأردَّهَا لَهُ؟»

وقبلَ أنْ يكمِلَ أمين عبارتَهُ شاهَدَ الشَّيخَ العَجُوزَ، صاحِبَ الجوْهرةِ، وهوَ يسِيرُ علَى مقربَةٍ، وصرَّتهُ فوقَ ظهْرِهِ، فأَشْرَقَ وَجْهُ «أمين» وتهلَّلَ وأَسْرَعَ نَحْوَ الشَّيخِ العَجُوزِ، وقالَ لَهُ:

«سامحْنِي أيُّها الشيْخُ الطَّيبُ، لقدْ سرقْتُ منْكَ ما كانَ لَكَ، وأَخذْتُ ما ليسَ لِي، فاسترِدّ جوهَرَتَكَ فقدْ علَّمتنِي درْساً لنْ أنساهُ فِي حَيَاتِي أبَداً».

وأعَادَ الجوْهرةَ إلَى الشَّيخِ العجُوزِ، فربتَ الشيخُ فوقَ كَتِفِ «أمين» وقالَ لهُ: «شُكْراً لكَ أيُّها الشَّابُّ، قليلُونَ مَنْ نَجَحُوا فِي الاِخْتبارِ وأعَادُوا الجوْهرةَ إلَى صاحِبِهَا، فأسْرِعْ إلى قصْركَ وبلدِكَ، فسوفَ تجدُ هنَاكَ ما يَسُرُّكَ».

قَالَ «أمين» حزيناً: «لَمْ يعدْ لِي فِي بلَدِي قَصرٌ ولا دكانٌ فقدْ أضاعَهمَا المالُ الحَرامُ، فما حَاجتِي للعوْدةِ إلَى هُنَاكَ؟»

أجابَه الشيْخُ العَجوزُ: «إنْ كانَ المالُ الحرامُ يُضيعُ الحلالَ، فإنَّ الأمَانةَ والاِستقامَةَ تُعِيداهُ».

وابتعَدَ الشيخُ العجُوزُ بالجوهَرةِ، وانذَهَشَ «أمين» أكثرَ ولمْ يفهمْ ما قالَه الشَّيخُ، ولكنهُ أسرَعَ منْ فورِه عائداً إلَى بلدِهِ.

وعندَما وَصَلَ «أمين» إلَى هنَاكَ أدهَشهُ ما رَأَى، وأذْهلَهُ ما سَمِعَ، فقدْ كانَ فِي مكانَ قصرِه المهدَّمِ قصرٌ أكبرُ وأعظمُ،

وفِي مكـانِ أرضِه المحتـرقَةِ، محـاصيـلُ وزرعٌ ومـواشِي، وفِي موضِعِ دكاكِينِه المنهوبَةِ بضائعَ وحوائجَ كثيرةً.

فاندَهَشَ «أمين»، وأسرَعَ إلَى رَئِيسِ خدَمِه وسأله مَذْهولاً عمَّا جرَى، فأجابَهُ رئيسُ الخدمِ : «لَقَدْ طالتْ غيبتُكَ يا سيِّـدِي، وأثنـاءَهَا قبضَتِ الشُّـرطَةُ على مَنْ سـرقُوا خـزائِنكَ وبضـاعَتكَ، وأعادَهَا القَاضِي إليْنَا، فبنيْنَا منْها قصْراً أعظَمَ ممَّا كانَ، وعمَّـرنَا أرضَكَ في كلِّ الأركانِ، وأعدْنَـا تجارَتـكَ وبضاعَتَـكَ، وتاجـرْنَا بالحَلاَلِ فزادَ المالُ عمَّا كانَ أضعافاً».

لمْ يُصَدِّقْ «أمين» أذنَيْهِ، وشكرَ رئيسَ خدمِه علَى أمانتِـهِ، وكـافأَهُ مكـافأةً حَسنـةً، ثُمَّ سَجدَ لِلَّهِ في الحَـالِ، ورفَـعَ يـديْـهِ بالدُّعاءِ والشُّكرِ، وذرَفَ دُموعاً كثيرةً، وأمرَ منـذُ تلكَ اللَّحظةِ ألاَّ يُغْلِقَ بـابُهُ في وجْـهِ جائـعٍ أو محْتاجٍ أو طـالبِ مـالٍ وكسَـاءٍ، وطلَبَ مِنْ خدَمِه ألاَّ يبِيعُوا بَضائِعَه إلاَّ بأقلِّ الأَسْعارِ، وأنْ يتَّبعُـوا الأَمانةَ فِي كُلِّ معاملاَتِهِمْ.

وعندَما تَذَكَّرَ «أمين» ابنةَ الحطَّابِ، وكيفَ فشلَ فِي إحضارِ الجوْهرةِ الغَاليةِ لَها، أحَسَّ بالحُزْنِ والأَسَى. وفِي نفْسِ اللَّحظَةِ

دخَـلَ رئيسُ خدَمِـهِ، ومعَـهُ الجـوهَـرةُ الثَّمينةُ وقالَ «لأمين»: «يا سيِّـدي، لقدْ مـرَّ شيخٌ عجـوزٌ بقصرِكَ منـذُ لحـظَةٍ، وأمَـرنِي أنْ أعطيَكَ هذِه الجوهَرةَ، وقالَ إنَّها مكافأتُهُ لَكَ».

فَذُهِلَ «أمين»، وأسرَعَ يبحَثُ عنِ العجُوزِ بلا فَائِدَةٍ فعرَفَ أنَّه اخْتفَى، ولنْ يعُودَ مـرَّة ثانيـةً، فحمَلَ الجـوهرَةَ، وأسـرعَ بِهَا إلَى ابنـةِ الحطَّابِ، وكـانتْ في مكانِهَـا مـعَ والـدِهَـا، يـرُصَّـانَ الحطَبَ فوقَ الْعرَبةِ، كأنَّما لمْ يتغيَّرْ شَيءٌ عما كَان.

قالَ «أمين» لابْنةِ الحطَّاب: «أيَّتُهَا الفَتَاةُ الكرِيمـةُ، هَا هِيَ جوْهرتُكِ الغَاليةُ الَّتِي طلبتِيهَا مهْراً، لمنْ يرِيدُكِ زوجةً لَهُ».

وَمَدَّ الجوهرةَ المتألقةَ إليْهَا، فـزادَ ضياؤهَـا، كأَنَّهـا شمسُ الصَّيفِ، تُعمِي العيْنين. ولكنَّ ابنـةَ الحـطَّاب هـزَّتْ رأسَهـا وقالتْ: «لَيْسَتْ هذِه هِي الجوهَرةُ الغَالِيَة».

فشحُبَ وَجْهُ «أمين» وقَالَ: «ولكنْ كيفَ. إنهَا أثمنُ جوهَرةٍ فِي العالَمِ كُلِّه، ولا مَثيلَ لَها فِي أيِّ مكانٍ».

إبْتَسَمَتْ ابنـةُ الحطَّابِ وقـالتْ: «بلْ هُنـاكَ جـوهَـرةٌ أغْلى منْهَا، وأَنتَ تملكُهَا، فهذَا ما تـدُلُّ عليْه تِلكَ الجـوْهرةُ المشعَّـةُ بينَ يَدَيْكَ».

وأشَارتُ إلَى صَدْرِ«أمين» وقالتْ: «إنَّ الجوهَرةَ الغَالِيـةَ الَّتِي طَلبتُهَا منْكَ هِيَ قلبُكَ، فهي أغلى جوهرة».

فتذكَّرَ «أمين» مَا قَالَتْهُ ابنةَ الحطَّابِ منْ قبْلُ، بأنَّ الجوْهرةَ الغاليَةَ الَّتي تـطلُبُهَا مـوجُودةٌ في كـلِّ مكانٍ، ولا يمكِنُ شـراؤهَا بالمَالِ، فتعجَّب وقالَ: «كيفَ لمْ أنْتبِهْ إلَى ما كنتِ تقصدِينَ؟»

أجابتِ ابنةُ الحـطَّابِ: «لأَنَّكَ لم تكُنْ تـدرِكُ وقتَها، قيمـةَ تلكَ الجــوهَـرةِ، ولمْ تكُنْ تَمْلِـكُهـا. فـالقلبُ الأنــانِيُّ المليءُ بالغُرورِ والأَطماعِ، وحُبِّ الدنْيا والمَالِ، لا يسَاوِي شَيئاً، فهـوَ أشْبهُ بِقِطْعَةِ زُجَاجٍ، كالَّتي صارَتْ إليْه جوهرتُكَ الَّتي تمسِكُها في يدِكَ، عندَما أخذتَها من الشَّيخِ العَجُوزِ. أَمَّا القلْبُ النَّقيُّ العامِرُ بـالأَمـانـةِ والفَضِيلةِ والإيمَـانِ، وحُبِّ الخيـرِ والنَّـاسِ، وكـلِّ الصفاتِ الطَّيبةِ، فهوَ جوهَرةٌ حقيقيَّةٌ لا يسَاوِيها مَالُ الدنْيا، وهـوَ مـا كنتُ أطلبُهُ دَائِمـاً، ولمْ يَنْتبهْ لـهُ أيُّ إنسانٍ وظنُّـوا أني أبحَثُ

عنْ جوهَرةٍ أُخْرَى. ولكنَّ ابنةَ الحطَّابِ لَا تَطلبُ منْ زَوْجهَا مالاً وَلَا ذَهبَا.. ولا فضَّةً أو قصْراً.. فهِيَ لا ترِيدُ غير زَوجٍ تقيٍّ يخَاف اللهَ ويسْعَى في الدُّنيا بِالخَيْر».

فابتهج «أمين» وقالَ: «يَا لَكِ من فتَاةٍ طاهِرَةٍ نقيَّةٍ.. وما أسعدَنِي بالزَّواجِ مِنْكِ».

وتَزَوَّجَ «أمين» منَ ابنةِ الحطَّابِ، وعاشَا عمَرهمَا كلَّه في سعَادةٍ، وأعادَا كلَّ مَا كانَ يَفعلهُ شهبندَرُ التُّجَّارِ وزوجَتُهُ، من فعْلِ الخيْرِ لكلِّ النَّاسِ، واتِّباع الفَضيلة.

* * *

الجوهرة الغالية

أسئلـــة:

١ ـ ما هي الصفات التي حرص الأب على نُصْح ابنه «أمين» بها؟

٢ ـ هل حافظ عليها أمين أم نكس بتعاليمه؟

٣ ـ اذكر شروط ابنة الحطّاب للزواج.

٤ ـ هل توصل أمين إلى فَهْم معنى الجوهرة الغالية من الرجل العجوز؟

٥ ـ أين جال أمين بحثاً عن الجوهرة، وكيف استفاد من صاحب القصر الذي لم يغلق بابه في وجهه؟

٦ ـ ما هو الدرس الذي تعلمه أمين من العجوز؟

استخرج التشابيه الموجودة في وصف ابنة الحطاب ص ١٥.

اعرب الجملة التالية ثم أنشىء مقطعاً إنشائياً يفسّر معنى هذه الجملة، موضحاً رأيك بشواهد من الحياة الاجتماعية.

ـ إنْ كان المالُ الحرامُ يضيعُ الحلالَ، فإنَّ الأمانة والاستقامة تعيدانه

هذه السلسلة تتضمن:
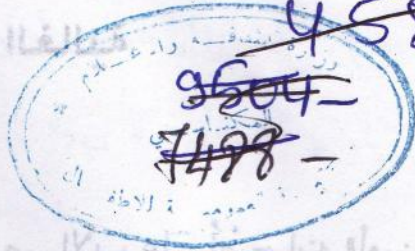
١ ـ القصر المسحور
٢ ـ الفارس العظيم
٣ ـ القرصان والبهلوان
٤ ـ نور والأميرة بدور
٥ ـ أميرة البحر الفضيّ
٦ ـ جنيّة الأمنيات الطيبة
٧ ـ كهرمان والأمير بهاء الدين
٨ ـ الحصان السحري
٩ ـ جبل السحاب
١٠ ـ الفارس المقنع
١١ ـ مغامرات عقلة الإصبع
١٢ ـ المرآة العجيبة
١٣ ـ الجوهرة الغالية
١٤ ـ البطل الصغير
١٥ ـ علاء الدين والحصان الطيّار
١٦ ـ الجزيرة المسحورة
١٧ ـ ذات الشعر الذهبي
١٨ ـ سعفان الجبار
١٩ ـ كنز الشاطر حسن
٢٠ ـ الحلم العجيب

الجَوْهَرةُ الغَالِيَة

عِنْدَما تَقَدَّمَ «أمينُ» الشَّابُّ الوَسِيمُ وَشَهْبَنْدَرُ التُّجَّارِ لِخِطْبَةِ ابْنَةِ الحطَّابِ، اشْتَرَطَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا مَهْراً: الجَوْهَرَةَ الغَالِيَةَ.

وَلكنَّ أمينَ لَمْ يَعْثُرْ على الجَوْهَرَةِ الغَالِيَةِ فِي أَيِّ مكانٍ، فَأصابَهُ الحُزْنُ وَالأَلَمُ وَقَرَّرَ سَرِقَتَهَا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا.

وَلكنْ ما حَدَثَ أصَابَ «أمين» بِكَوَارِثَ عَدِيدَةٍ، فَضَاعَ كُلُّ مَالِهِ وَتَهَدَّمَ قَصْرُهُ وَاحْتَرَقَتْ أَرْضُهُ..

فَكَيْفَ تَمَكَّنَ «أمين» مِنْ اسْتِعَادَةِ مَا ضَاعَ مِنْهُ، وَالتَّخَلُّص مِنْ لَعْنَةِ «الجوْهَرَةِ الغَالِيَةِ»، فَهَلْ تَزَوَّجَ ابْنَةَ الحَطَّابِ الجَميلَةَ في النِّهايَةِ؟

دار الجيل